مقال عن التمييز العنصري ضد الأمريكيين الأفارقة في ضوء رواية "أن تقتل طائرًا بريئًا" للكاتبة الأمريكية هاربر لي

نبذة تاريخية عن الزنوج بالولايات المتحدة:

عندما نجح المستوطنون الإنجليز في تأسيس ولاية فيرجينيا **Virginia** علي الساحل الشرقي لما يعرف حديثًا بالولايات المتحدة الأمريكية، صارت أرضًا للاستعباد، إذ في عام ١٦١٩م ألقت سفينة هولندية مرساها في ميناء جميس تاون **Jamestown**، وكان عليها أول حمولة من الأفارقة، وكان المستوطنون الإنجليز قد جاءوا الأرض الجديدة، وهم يحملون التقاليد الأوروبية التي تحط من قدر السود، فاستغلوا العناصر الوافدة من السود في أعمال السخرة (١).

ومع منتصف القرن السابع عشر عدل قانون فيرجينيا؛ لكي يحدد وضعًا خاصًا يقضي بأن يكون الأفارقة عبيدا، وبالتالي أصبحت الأرض الجديدة واعدة للإنجليز والأوروبيين فقط.

وكان الجنوب الأمريكي من أكبر أقاليم العالم إنتاجًا للقطن؛ لذا واجه الجنوبيون مشكلة قلة الأيدي العاملة، وجاء الحل في شراء الرقيق من أواسط افريقيا؛ ليعملوا في مزارع البيض (٢).

وبعد استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عام١٧٨٣م، بدت وكأنها منقسمة إلي قسمين: أحدهما في الشمال، ويمثل المجتمع التجاري الصناعي، ويري في الرق سببًا في تأخره؛ والآخر في الجنوب، ويمثل المجتمع الزراعي، ويرى في الرق عنصرًا أساسيًا في الاقتصاد.

وقد وصف حاكم كارولينا الجنوبية الرق في عام ١٨٣٥ م بأنه "حجر الزاوية في صرحنا الجمهوري" (٣).

وقد رأى إبراهام لنكولن **Abraham Lincoln** (مرشح الحزب الجمهوري للرئاسة الأمريكية) أن كل تشريع وطني يجب أن يصاغ على أساس المبدأ القائل بأن الرق ينبغي أن يحاصر ثم يلغي في النهاية.

لذا فقد أدي انتخاب إبراهام لنكولن رئيسًا للولايات المتحدة عام ١٨٦٠ بتأييد ولايات الشمال، إلى نشوء الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب (١٨٦١-١٨٦٥ م).

وقد انتهت الحرب بانتصار الشمال، وإلغاء الرق عام ١٨٦٥م. غير أن الحرب لم تمنح الزنوج المساواة الفعلية مع البيض، فقد تشكلت جمعيات إرهابية سرية من البيض مارست العنف ضد الزنوج. ومن أشهرها جمعية كو كلوكس كلان **Ku-Klux-Klan** (١٨٦٥-١٨٦٦).

الزنوج في مايكوم Maycomb :

تصور لنا رواية "أن تقتل طائرًا بريئًا" أن وضع الزنوج في بلدة مايكوم الجنوبية لم يكن يختلف عن وضع أقرانهم في الجنوب، فقد كانوا علي قدر كبير من البؤس والشقاء، حيث كانوا يعيشون في عزلة، بعيدًا عن مجتمع البيض الراقي، ويقيمون في مستوطنة صغيرة خلف مقلب النفايات، ويسكنون في أكواخ صغيرة لم تكن أكثر من غطاء يحميهم، ويعملون في حقول البيض الأثرياء صيفًا، وفي أفنية منزلهم شتاءً.

وقد حرم الزنوج من التعليم، فقد كان أغلبهم من الأميين– الذين لا يجيدون القراءة والكتابة – فقد كانوا ينشدون الترانيم في كنيستهم حفظًا عن ظهر قلب. غير أنه كانت هناك فئة ضئيلة نالت قدرًا من التعليم بمساعدة بعض البيض والمثال علي ذلك كالبورينا **Calpurnia** خادمة المحامي أتيكوس فينش **Atticus Finch**، والتي قامت هي الأخرى بتعليم أحد أقرانها القراءة والكتابة، وهو زيبو **Zeebo** عامل النظافة، والذي يقوم بالإنشاد في الكنيسة في أيام الآحاد.

وكان للزنوج كنيستهم الخاصة بهم، وقد افتقرت إلى أبسط الإمكانيات، نتيجة لحالة الفقر المدقع التي سادت مجتمع السود، لا سيما أثناء عصر الكساد الأعظم في الثلاثينيات من القرن الماضي.

توم روبنسون الطائر البريء:

وقد عانى الزنوج من الظلم والعدوان من جانب البيض، فقد شاع بين البيض "افتراض آثم" يذهب إلي "أن كل الزنوج يكذبون، وأن كل الزنوج لا أخلاق لهم من الأساس، وأن كل ذكور الزنوج لا يمكن الوثوق بهم فيما يخص نساءنا"(*).

فقد كان كافيًا توجيه اتهام إلى أحد الزنوج حتى ينزل به أشد أنواع العذاب، أو يعدم دون أن يحاكم. ويتضح ذلك في قضية توم روبنسون، فبالرغم من افتقار الادعاء إلى الأدلة المادية، التي تثبت وقوع جريمة الاغتصاب، فقد اكتفت الشرطة وهيئة المحلفين بشهادة اثنين من البيض، يشوبها الشك والريبة، في اعتقال توم روبنسون، والزج به في السجن، ثم إدانته؛ لكونه من ذوي البشرة السوداء.

"فالناس العقلاء يصابون بالجنون المطلق حين يتعلق الأمر بزنجي"(*). فبالرغم من أن المحلفين كانوا يتسمون بالتعقل، إلا أن التعصب الأعمى قد حال بينهم وبين التفكير العقلاني، فالأبيض هو الرابح دائمًا، فقد كان قرارهم بالإدانة قرارًا مسبقًا، عقدوا عليه النية، منذ أن دعوا إلى منصة المحلفين.

وقد دفع توم حياته ثمنًا لإحساسه بالشفقة تجاه امرأة بيضاء (ماييلا يوويل)، والتي عاشت هي الأخرى في عزلة، فالبيض لا يكترثون بها؛ لأنها تعيش بين الخنازير، والسود لا يقبلون بها لكونها بيضاء. الأمر الذي دفعها إلى إغواء توم، الذي عاملها باحترام. وعندما أدركت بشاعة ما فعلته، وكيف أنها حطمت كل الأعراف بتقبيلها لزنجي، سعت جاهدة إلى التخلص من الشعور بالذنب بالقضاء على حياة هذا الطائر البريء، فيكفيها أن تقول:هذا هو...، فيكون في عداد الموتى.

الزنوج والنازية:

تعجبت سكاوت **Scout** بشدة من موقف معلمتها جيتس، التي شنت هجومًا عنيفًا على السياسة النازية لهتلر الذي نكل باليهود في أوروبا، في الوقت الذي أبدت فيه الكراهية تجاه الزنوج، فبعد محاكمة توم، قالت: "إن الوقت قد حان وأصبح ضروريًا أن يلقنهم أحد درسًا، فقد صاروا يحاولون تخطي حدودهم، وإن الخطوة التالية ستكون الزواج منا" (*).

وتساءلت سكاوت كيف يمكن لشخص أن يكره هتلر إلى هذا الحد، ثم يتحول ليمارس أفعالاً بشعة تجاه أشخاص موجودين في موطنه.

وبذلك يتضح لنا مدى التناقض، الذي عانى منه المجتمع الأمريكي، ففي الوقت الذي كان فيه الجنود الأمريكيون يحاربون ألمانيا النازية خارج أراضيهم دفاعًا عن حقوق الإنسان، كان السود داخل أراضيهم يئنون تحت وطأة الفصل العنصري.

وبالرغم من هذه الصورة القاتمة لوضع الزنوج دخل المجتمع الأمريكي، فقد كافح الزنوج من أجل المساواة مع البيض وقد كللت مساعيهم بالنجاح، عندما تم إلغاء القوانين العنصرية في أواخر القرن العشرين.

هوامش المقال:

(١) جمال محمود حجر، **دراسات في التاريخ الأمريكي** (دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية، ٢٠٠٤).

(٢) عمر عبد العزيز عمر، **التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث** (دار المعرفة الجامعية: الإسكندرية، ٢٠٠٢).

(*) أتيكوس فينش في "أن تقتل طائرًا بريئًا"